عمر بن عبد العزيز

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان ، وأمه ليلى بنت أم عمارة بنت سفيان بن عبد الله بن ربيعة الثقفي عاصم بن عمر بن الخطاب ، وقد تولى الحكم بعد سليمان بن عبد الملك بن مروان بعهد منه وهو بن عمه ، وذلك أن سليمان لما حضرته الوفاة بمرج دابق دعا رجاء بن حيوة **قال بن عون:" رأيتُ ثلاثة ما رأيتُ مثلهم: محمد بن سيرين بالعراق، والقاسم بن محمد بالحجاز**، **ورجاء بن حيوَة بالشام"** زاهد بني أمية، والحاكم بأمره في دولتهم"، ووصفه ابن كثير بأنه كان "وزير صدق لخلفاء بني أمية"، ومحمد بن شهاب الزهری و مکحولا وغيرهم من العلماء من كان في عسكره غازيا ونافر"، فكتب وصيته ، وأشهدهم عليها ؛ وقال: إذا أنا مت نادوا بالصلاة جامعة ، ثم اقرؤوا هذا الكتاب على الناس ، فلما فرغوا من دفنه نادوا - الصلاة جامعة - فاجتمع الناس وحضر بنو مروان فقام الزهري فقال : أيها الناس ، أرضیتم من سماه أمیر المؤمنين سليمان في وصيته ؟ فقالوا: نعم. فقرأ الكتاب، فإذا اسم عمر بن عبد العزيز، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فقام مكحول فقال: أین عمر؟ وكان في أواخر الناس، فاسترجع حين دعي باسمه مرتين أو ثلاثا ، فأتاه قوم فاخذوا بيده وعضديه ، فأقاموه وذهبوا به إلى المنبر ، فصعد وجلس على المرقاة الثانية - وللمنبر خمس مراق - فكان أول من بايعه من الناس یزید بن عبد الملك ، وقام سعيد وهشام فانصرفا ولم يبايعا ، وبايع الناس جميعا ، ثم بايع سعيد وهشام بعد ذلك بيومين .

وقد كان عمر قبل الملك مع صلاحه وعفته يبالغ في التنعم ، حتى قيل إنه كان يشترى الحلة بألف دينار ؛ فإذا لبسها استخشنها ولم يتحسنها ولكنه رأی سلیمان يؤثره بالملك على إخوته ، ورأى أولئك العلماء يحسنون الظن به ويجتهدون في توثيق الأمر له ، لعله يصلح ما فسد في المسلمين ، ويسير بهم في طريق النهوض والتجديد ، فلم ير أن يخيب ظنهم فيه ، بل رأى أن يحقق هذا الأمل الذي يتطلع الناس إليه ، منذ صار الحكم فيهم جورا واستبدادا ، وكان لما ورثه عن عمر بن الخطاب من جهة أمه أثر في تغير حاله بعد أن صار إليه الملك ، يختم ذلك القرن بإصلاح ما فسد من الحكم، وتجديد ما بلى من الدين ، والنهوض بالعلم بعد جموده ، والعمل على إصلاحه ونشره في الناس .

(۱) وقيل إنه لما ولى رد الأمر إلى الأمة، فصعد المنبر فقال: أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان منه فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلت ما في اعناقكم من بینی، فاختاروا لأنفسكم. فقال الناس: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك، قل الأمر باليمن والبركة.

قد كان لعمر إصلاحات كثيرة في هذه المدة القصيرة:

منها إعادة العمل بالشوری، فقرب إليه أملها من العلماء الصالحين، وأخذ

يستشيرهم في أمور الملك، ويعمل بمشورتهم في هذه الأمور، فاستقام له أمر الناس بالشوری، وکسب رضاهم بإزالة ما أرهقهم قبله من استبداد الملوك فيهم، واستباحتهم أموالهم، وإراقتهم دماءهم.

ومنها إنصاف طوائف الأمة على اختلاف أجناسها وآرائها وعقائدها، فأرضى بهذا المخالفين فيها قبل الموافقين، ونفى على الفتن والثورات الداخلية، وكان من أشد المخالفين في الدولة طائفتا الشيعة والخوارج، فارضي الشيعة بإبطال ما كان يأخذ به بنو أمية من ذم على المنابر، ورد حقوقهم، وأرضى الخوارج بأخذهم بالحجة والإقناع، وإبطال ما كانوا يؤخذون به قبل من استعمال السيف، وعدم الإصغاء لما يشكون منه من فساد أمور الدنيا والدين، واستبداد الملوك في الحكم.

وقد كان قبل الملك ينهى سليمان بن عبد الملك عن قتل الخوارج، ويقول له: ضمنهم الحبس حتى يحدثوا توبة. اتی سلیمان بخارجی فقال له: هيه، فقال الخارجي له : وماذا أقول یا فاسق ابن الفاسق ؟، فدعا سليمان بعمر بن عبد العزيز وقال له : اسمع مقالة هذا ، فأعادها الخارجي، فقال سليمان العمر : ماذا ترى عليه ؟

كنت، فقال له سليمان: عزمت عليك لتخبرني بماذا ترى عليه؟ فقال: أرى أن تشتمه كما شتمك.

فلما مَلك جاء له بعض الخوارج في أمر ملوك بني مروان قبله، فقال له: رأيناك خالفت أعمال اهل بيتك وسميتها المظالم، وسلكت غير سبيلهم، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبر أمنهم، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق، فأجابه عمر بأن لعن أهل الذنوب ليس فريضة مفروضة لا بد منها، ولم يزل به حتى ارضاه وأقنعه، وقد كان إقناع الخوارج من أصعب الأمور، لبداوتهم وتنطعهم في الدين، والحقيقة أنه أرضاهم بإخلاصه وعدله.

ومنها تخفيفه الضرائب عن الناس، لأن الحكومة يجب أن نهتم بإصلاح حال الناس وإرشادهم إلى ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم، ولا يصح أن يكون عملها مقصورا على جباية الضرائب، وقد كان من قبله يجعل جباية الضرائب أهم عمل في الدولة، حتى حمله هذا على إبقاء الجزية على من كان يسلم من أهلها، فأبطل عمر ذلك وشدد في إبطاله، حتى إن واليه على مصر شكا أن الإسلام اضر بالجزية، واستاذن في أن يفرضها على من أسلم، فأرسل إليه كتابا يقول فيه: ۱... فضع الجزية عمن اسلم قبح الله رأيك، فإن الله إنما بعث محمدا له هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعَمرى لَعُمَرُ أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه.

ومنها اهتمامه بتدوین العلوم ونشرها، وعدم تفرقته في ذلك بين العلوم الشرعية وغيرها، لأنه يرى أن العلم بكل أنواعه ضروری لنهوض المسلمين وتقدمهم، وصلاح حال دنياهم وأخراهم.

وما اهتم تدوينه من العلوم الشرعية علم الحديث ، وكان الناس قبله لا يكتبون أقوال النبي- صلى الله عليه وسلم- وفتاوى الصحابة ، لأنهم كانوا يؤثرون الحفظ على الكتابة ، ويخافون أن يجرهم الاعتماد على الكتب إلى إهمال حفظ القرآن والسنة ، والكتب عرضة للضياع والتصحيف والتحريف ، ولو عرض لها عارض فات معه علم الدین ، فرأی عمر أن هذه نزعة من نزعات الجمود، وأثر من آثار الجاهلية التي كانوا يعتمدون فيها على الرواية والحفظ، لندرة الكتابة بينهم ، ولا يصح أن يبقى هذا فيهم بعد أن قضى الإسلام على أمينهم ، وأشاع الكتابة والقراءة فيهم ، وبدلهم من البداوة حضارة ، ومن الفوضی ملكا ودولة ، فبدأ بتدوين ذلك العلم الذي ظهر فيه أثر تلك الرجعية ، ليفتح باب هذا التجديد للمسلمين ويمضوا في تدوين غيره من العلوم ، وكان منه في هذا أن أذن لأبي بكر محمد ابن عمر بن حزم في تدوين ما حفظ من حديث النبي –صلى الله عليه وسلم- تدونه في كتاب وأرسله إليه ، فبعث بنسخة منه في كل مصر من الأمصار ، وكان له بهذا فضل تدوين السنة ، كما كان لعثمان بن عفان فضل تدوين القرآن في مصحف ، وهو فضل عظيم عند الله ، وقد كان الواجب تدوين الحديث قبله ، فقيامه به أدى هذا الواجب عنهم .

ومما اهتم بنشره من العلوم علوم الحكمة من الطب وغيره ، فقد عنى بنقلها إلى اللغة العربية ، وكان يقرب إليه بعض المشتغلين بها ، مثل عبد الملك بن أبجر الكناني وماسرجيس البصري ، وقد تولى ماسرجيس له ترجمة كتاب أهرن القس في الطب ، وقيل إنه تولى ذلك في أيام مروان بن الحكم ، فلما جاء عمر وجده في خزائن الكتب فأمر بإخراجه ، وكان ماسرجیس ينقل من السريانية إلى العربية وله من الكتب کتاب نوی الأطعمة ومنافعها ومضارها ، وكتاب نوی العقاقير ومنافعها ومضارها ، ومعرفة عمر بفضل علوم الحكمة يشهد بفضلها في الدين ، وفيه أعظم رد على من يعاديها من الجامدين الذين أتوا بعده.

وقد يعتذر عن عمر في هذا بأن العهد له من سليمان كان بمشورة من سبق من العلماء الصالحين ، وقد آثره سليمان مشورتهم على إخونه وغيرهم ممن كانوا أقرب منه إليه ،" وبهذا لا يكون عهدة صادرة عن هوی ، بل يكون صادرة عن إرادة الخير والمصلحة للمسلمين ، وهو في هذا مثل عهد أبي بكر لعمر ، وعهد عمر لمن يتولى بعده ، وهذا يكفي في إبطال ما أخذه عليه المنصور من أنه قبلها ممن لم يكن لها أملا ، وتولاها بغير استحقاق ، على أنه روى فيما سبق أنه رد الأمر إلى المسلمين فأعادوا بيعته باختيارهم ،2 وما كان أجدر بالمنصور أن ينظر إلى نفسه قبل أن يوجه هذا النقد لغيره ، لأنه كان جبارا في حكمه مثل عبد الملك بن مروان ، وأما أنه لم يحاول إصلاح الحكم بعده بجعله شوری بین المسلمين فقد يعتذر عنه أيضا بأنه تولی بعهد جمع بينه وبين يزيد بن عبد الملك ، فرأى أنه

لا حق له في تغير عهد تولی به، ولهذا روى عنه أبو عبيد البكري في كتابه " معجم ما استعجم، أنه قال: لو كان لي أن أعهد لم أعد أحد رجلين: صاحب الأعوصة) . او اعمش بني تيم ، يعنى إسماعيل بن عمرو بن سعید بن العاص، وكان له فضل ، لم يتلبس بشيء من سلطان بني أمية ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وكان من سادات التابعين ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة .

على أن عمر قد تولى الحكم سنة ۹۹ - ۷۱۷ م، فمكث فيه مدة قصيرة ، إذ توفي سنة ۱۰۱ه - ۷۲۰ م ، ولكنها كانت درة لامعة في أواخر ذلك القرن ، بعد أن ظهر فيها ما ظهر من الفساد ، وتلطخت بما تلطخت به من الاستبداد وسفك دماء العباد .

ويكفيه أنه ضرب بعدله مثلا لمن أتى بعده، فإذا لم ينفع هذا المثل فيمن أتي بعده من الملوك الظالمين، إذ عاد الأمر إلى مثل ما كان عليه قبله، فإنه لا ذنب في ذلك عليه،

وقد مضى في الإصلاح بقدر ما امكنه في ذلك الوقت القصير، ولو أراد الله مسلمين اخيرا لاطال حكمه بينهم، ولكنهم كانوا قد أمعنوا في الفساد، ولم يلتزموا حدود الإسلام إلا مدة قصيرة في عهد الخلفاء الراشدين، فأراد أن يطيل عقابهم بالمضي في ذلك الفساد، والله في خلقه شؤون.

ولقد مضوا في ذلك الفساد حتى أفتي العلماء الرجعيون بعده لبعض ملوك بني امية حین ولی بانه لا عقاب عليه، لأنه نائب عن الله في حكمه، ليذنب ما يشاء، ويستبد في الرعية ما يشاء، وقد دخل على سيد التابعين الحسن البصري جماعة منهم - وكانوا عربا - يستشيرونه ، فلما اشار عليهم بما لا تهوى أنفسهم قالوا : أنطبع هذا العلج) ؟ لانه كان مولی ، ففخروا عليه بنسبهم ، وعادوا إلى اسوا انواع رجعية الجاهلية ، ليقضي الله امرا كان مفعولا .

معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز:

يرى المتتبع لأقوال العلماء والمؤرخين والمهتمين بدراسة الحركة التجديدية، إجماعاً تاماً على عدّ الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز المجدد الأول في الإسلام، وكان أول من أطلق عليه ذلك الإمام محمد بن شهاب الزهري، ثم تبعه على ذلك الإمام أحمد بن حنبل، فقال: يروى في الحديث: «إن الله يبعث على رأس كل مئة عام من يصحح لهذه الأمة أمر دينها»، فنظرنا في المئة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز، وتتابع العلماء على عدّه أول المجددين وذكر بعض أهل العلم أنه من المقصودين بحديث رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها» .

ولا شك أن عمر بن عبد العزيز خليق بأن يكون ممن يحمل عليه هذا الحديث، فقد كان عالماً عاملاً، همه كله، وعزمه، وهمته، اناء الليل والنهار إحياء السنن وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها، وكسر أهلها باللسان، والسنن.

يقول ابن حجر العسقلاني: إن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المئة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعي، وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل.

مجدد كامل حتى الان، وإن كان عمر بن عبد العزيز أوشك أن يبلغ مرتبة المجددية الكاملة لو أنه استطاع إلغاء طريقة الحكم الوراثية، وإعادة انتخاب الخليفة عن طريق الشورى.

وسواء استحق عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكامل أم لا، فإن الأعمال التجديدية التي قام بها، والجهود الكبيرة التي بذلها لاستئناف الحياة الإسلامية، وإعادتها إلى نقائها وصفائها زمن الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين تجعله على رأس المجددين الذين جاد بهم الزمان حتى يومنا هذا، وقد ساعده على ذلك موقعه الذي تبوأه على رأس خلافة قوية، منيعة الجانب، مترامية الأطراف.

ولكي ندرك حجم الأعمال التجديدية التي اضطلع بها هذا الخليفة، وقدر الإصلاح الذي أحدثه، ينبغي أن نقف على حجم الانحرافات التي طرأت على الحياة الإسلامية والتغيّر والانقلاب الذي حدث للخلافة الإسلامية، ولعلنا لا نجانب الحقيقة إذا حصرنا الانحراف في ذلك الوقت بنظام الحكم، وما نتج عن ذلك من مظالم وفساد، وأما الحياة العامة فكانت أنوار النبوة لا زالت ذات أثر بالغ فيها، وكان الدين صاحب السلطان الأول في قلوب الناس .

1 ـ من إصلاحات عمر وأعماله التجديدية:

أ ـ الشورى:

قد مرّ معنا أن عمر بن عبد العزيز في أول لقاء له مع الناس حمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس ! إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم، فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك: فَلِ أمرنا باليُمن والبركة. وبهذا يكون عمر قد قام بأول عمل تجديدي، حيث أعفى الناس من الملك العضوض، ولم يجبرهم على القبول بمن لم يختاروه، بل رد الأمر إليهم وجعله شورى بينهم.

ب ـ الأمانة في الحكم وتوكيل الأمناء:

فقد تواترت النقول المفيدة أنه بلغ من حرصه على ذلك أقصى المراتب، فقد استشعر عظم المسؤولية وضخامة الحمل منذ اللحظة الأولى لاستلامه الخلافة، فقال لمن سأله: ما لي أراك مغتماً؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليُغتم، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إليّ فيه، ولا طالبه مني. وقال: لست بخير من أحد منكم، ولكن أثقلكم حملاً.

وكان يطالب عمّاله باختيار أصحاب الكفاءة والدين فيمن يولونه شأناً من شؤون المسلمين، فقد كتب إلى أحد عمّاله: لا تولين شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استرعى.

ولم تكن سياسته في التورع عن أموال المسلمين سياسة طبقها على خاصة نفسه فقط، بل ألزم بها عمّاله وولاته، فقد كتب إلى عامله أبي بكر بن حزم: أن أدق قلمك، وقارب بين أسطرك، فإني أكره أن أخرج من أموال المسلمين مالاً ينتفعون به.

وقد ساس رعيته سياسة رحيمة، وأمَّن لهم عيشاً رغيداً، وكفاهم مذلة السؤال، فقسم فضول العطاء في أهل الحاجات، وقسم في فقراء أهل البصرة ثلاثة دراهم لكل إنسان، وأعطى الزمنى خمسين خمسين، وطلب من عماله أن يجهزوا من أراد أداء فريضة الحج، وكتب إلى عماله: أن اعملوا خانات في بلادكم؛ فمن مر بكم من المسلمين، فاقروهم يوماً وليلة، وتعهدوا دوابهم؛ فمن كانت به علّة فاقروهم يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقوّوه بما يصل به إلى بلده.

وقد عزّ في زمن عمر وجود من يقبل الزكاة؛ يقول عمر بن أسيد: والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح يرجع بماله كله؛ قد أغنى عمر الناس.

وكانت حرمة المسلمين فوق كل الأموال فقد كتب إلى عماله: أن فادوا بأسارى المسلمين، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم.

ولاتزال خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية، على كل أولئك الذين يشككون في إمكانية إقامة نظام اقتصادي إسلامي، وبرهاناً ساطعاً على أن الاحتكام للشريعة الربانية هو وحده الذي يكفل للناس السعادة في الدنيا والآخرة .

جـ مبدأ العدل:

فقد كان فيه لعمر القدح المعلَّى، وكان بحق وارثاً فيه لجدّه لأمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد ضرب فيه على النقود عبارة: أمر الله بالوفاء والعدل، وطلب أن لا يقام على أحد حد إلا بعد علمه، وكتب لعامله الجراح بن عبد الله الحكمي أمير خراسان: يابن أم جراح! لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق، واحذر القصاص، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا إحصاها .

وأنصف أهل الذمة، وأمر أن لا يعتدى عليهم أو على معابدهم، وكتب إلى عماله: لا تهدموا كنيسة ولا بيعة، ولا بيت نار صولحتم عليه ، وقد رفع المكس وحطّ العشور والضرائب التي فرضتها الحكومات السابقة، وأطلق للناس حرية التجارة في البر والبحر، وقد تبرَّأ من المظالم التي كان يرتكبها بنو أمية، وتبرَّأ من الحجّاج وأفعاله، و أنكر على عمّاله الاستنان بسنته .

د ـ إحياؤه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أخذت الخلافة تتراجع عن الغاية التي قامت من أجلها؛ وهي حراسة الدين، فنهض عمر بهذا المبدأ ورفع لواءه وأعلى شأنه وجعله المهيمن والمقدّم على ما سواه، وما حقق عمر مما حققه من أعمال وإنجازات إلا انطلاقاً من خوفه الشديد من الله، وطلبه فيما فعله مرضاته، وقد ساعده على ذلك أنه كان من أجلة العلماء التابعين وأئمة الاجتهاد؛حتى قال عنه عمر بن ميمون: كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة ، وقد كان لسلامة دينه وصدق عقيدته الأثر البالغ في تجديده وإصلاحاته، فقد حارب الأهواء والبدع، وشدد النكير على أهلها ـ وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى.

وقد نقل عنه الإمام الأوزاعي قوله: إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم بشيء دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة.

وكان يرى أنه لا قيمة لحياته لولا سنة يحييها، أو بدعة يميتها، وقد اهتم اهتماماً شديداً بديانة الناس وأخلاقهم، فكتب إلى عمّاله: اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات؛ فمن أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشدّ تضييعاً .

والناظر في رسائل عمر وخطبه ومواعظه وهي أكثر من أن تحصى ؛ يرى إيماناً قوياً، ومراقبة جلية، وخوفاً من يوم يقف فيه الناس بين يدي رب العالمين.

وقد أثرت شخصية عمر وسياسته العادلة تأثيراً بالغاً في حياة العامة وميولهم وأذواقهم ورغباتهم؛ يدل على ذلك ما ذكره الطبري في تاريخه مقارناً عهد عمر بعهود من سبقه من الحكام السابقين: كان الوليد صاحب بناء واتخذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه، فكان يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع، فولي سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم عن التزويج والجواري، فلمّا ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القران؟ ومتى تختم ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشهر؟

ولم يكتف عمر بإقامة الدين داخل دولتـه، بل وجّه عنايته إلى غير المسلمين، ودعاهم إلى الدخول في الإسلام، وراسل ملوك الهند وملوك ما وراء النهر، ووعدهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فأسلم الكثير منهم وتسموا بأسماء العرب.

ولعل من أجل الأعمال التي خدم بها هذا الدين أمره بتدوين العلوم الإسلامية، وخاصة علم الحديث، وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى.كل هذه الأعمال العظيمـة والإصلاحات الجليلة حققها عمر في مدة خلافته الوجيزة، فغدا درة للأمة، ومنارة يستهدي بنورها الملتمسون دروب التجديد والإصلاح.

2 ـ من شروط المجدد وصفاته:

نستطيع أن نحدِّد أهم شروط المجدد والصفات التي ينبغي أن تتوافر فيه حتى يعد من المجددين من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

أ ـ أن يكون المجدد معروفاً بصفاء العقيدة وسلامة المنهج:

وذلك لأن من أخصِّ مهمات التجديد إعادة الإسلام صافياً نقياً من كل العناصر الدخيلة، وهذا لا يحصل إلا إذا كان المجدد من السائرين على منهج الرسول ﷺ وصحابته الكرام، ومن الطائفة الناجية المنصورة التي جاء وصفها بأنها فرقة من ثلاث وسبعين فرقة، وأنها تلزم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه في عقيدته، ومنهجه وتصوراته وهذا الشرط قد توفَّر في عمر بن عبد العزيز، وسوف نوضحها في اثاره العقدية عند دراستها بإذن الله تعالى.

ب ـ أن يكون عالماً مجتهداً:

وهذا الشرط تحقق في عمر بن عبد العزيز؛ فقد واجه المشكلات التي تولدت في عصره، واجتهد في وضع الحلول الشرعية لها، وفي الحقيقة: إن رتبة الاجتهاد ليست عسيرة إلى الحد الذي تصوره بعض كتب أصول الفقه، وممن ذهب إلى وضع شروط يكاد يكون من المحال الإحاطة بها، حيث أوجبوا أن يحيط المجتهد بعلوم الالة كلها من نحو ولغة وبلاغة، وبعلوم الشريعة من تفسير وحديث وأصول فقه وعلوم قران ومصطلح حديث وسيرة، وبعلمي المنطق وعلم الكلام، وغير ذلك مما يصعب الإحاطة به ، والصواب أن الاجتهاد سهل ميسور، لمن كانت عنده أهلية النظر، والمهم أن نعلم أن المجدد يشترط فيه أن يكون محيطاً بمدارك الشرع، قادراً على الفهم والاستنباط، مطَّلعاً على أحوال عصره، فقيهاً بواقعه .

يقول المناوي: إن على المجدد أن يكون: قائماً بالحجة، ناصراً للسنة، له ملكة رد المتشابهات إلى المحكمات، وقوة استنباط الحقائق والنظريات، من نصوص الفرقان وإرشاداته ودلالاته واقتضاءاته، من قلب حاضر وفؤاد يقظان. ويقول العظيم ابادي: إن المجدد للدين لابد أن يكون عالماً بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصراً للسنة، قامعاً للبدعة، ويقول المودودي: من الخصائص التي لابد أن يتصف بها المجدد؛ هي: الذهن الصافي، والبصر النفاذ، والفكر المستقيم بلا عوج، والقدرة النادرة على تبيين سبيل القصد بين الإفراط والتفريط، ومراعاة الاعتدال بينهما، والقوة على التفكير المجرد عن تأثير الأوضاع الراهنة، والعصبيات الراسخة على طول القرون، والشجاعة والجرأة على مزاحمة سير الزمان المنحرف ، ويقول في تعداده لعمل المجدد: الاجتهاد في الدين، والمراد به أن يفهم المجدد كليات الدين، ويتبين اتجاه الأوضاع المدنية والرقي العمراني في عصره، ويرسم طريقاً لإدخال التعبير والتعديل على صورة التمدن القديمة المتوارثة، يضمن للشريعة سلامة روحها وتحقيق مقاصدها، ويمكّن الإسلام من الإمامة العالمية في رقي المدنية الصحيح.

جـ أن يشمل تجديده ميداني الفكر والسلوك في المجتمع:

وذلك لأن تصحيح الانحراف من أخص المهمات التي ينبغي أن يقوم بها المجدد، ومعلوم أن الانحراف يطرأ على السلوك كما يطرأ على الفكر، بل إن غالب الانحرافات السلوكية منشؤها الخرافات الفكرية، فيقوم المجدد بتصويب الأفهام والأفكار، وتخليصها مما داخلها من شكوك وشبهات، ويحيي العلم النافع، والفهم الصحيح للإسلام، ويبثـه بين الناس، وينشره بالتدريس، وتأليف الكتب، وغير ذلك من الوسائل المتاحة، ثم يعمد إلى إصلاح سـلوك الناس وتقويـم أخلاقهم، وتزكية نفوسهم، وإبطال التقاليد المخالفة للشريعـة، وإعلان الحرب على البـدع والخرافات، والمنكرات المتفشية في حياة الناس، ومواجهـة الفساد بمختلف أشكالـه وصوره، وخاصة الفاسد في الحكم والإمارة، بهذا يكون المجدد قد جمع بين القول والفعل، والعلم والعمل، وقد أشار السلف إلى هذا الشرط بقولهم عن المجدد: إنه ينصر السنة ويقمع البدعة.

د ـ أن يعم نفعه أهل زمانه:

وذلك لأن المجدِّد رجل مرحلة زمنية، تمتد قرناً من الزمن، فلابد إذن من أن يكون منارة يستضيء بها الناس ويسترشدون بهداها، حتى مبعث المجدد الجديد على الأقل، وهذا يقتضي أن يعم علم المجدد ونفعه أهل عصره، وأن تترك جهوده الإصلاحية أثراً بيناً في فكر الناس وسلوكهم، وغالباً ما يتم تحقيق ذلك عبر من يربيهم من تلامذة،

وأصحاب أوفياء، يقومون بمواصلة مسيرته الإصلاحية وينشرون كتبه وأفكاره ويؤسسون مدارس فكرية تترسم خطاه في الإصلاح والتجديد.

3 ـ قول رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها». والدروس والعبر والفوائد المستنبطة منه:

يعد هذا الحديث إحدى البشائر بحفظ الله لهذا الدين مهما تقادم الزمان، وبكفالته سبحانه إعزاز هذه الأمة ببعثة المجددين الربانيين الذين يحيونها بعد موات، ويوقظونها من سبات، بما يحملونه من الهدى والنور، وأن هذا الحديث يمنح المسلم طاقة من الأمل الأكيد، بأن المستقبل للإسلام مهما تكاثرت قوى الشر، وتعاظم طغيان أهل الباطل، وبأن النور سيسطع مهما احلولك الليل، واشتد الظلام.

ونحن في الوقت الحاضر بحاجة ماسّة لتأكيد هذا المعنى، ونشره بين الناس، حتى نقاوم موجات اليأس والقنوط التي عمَّت النفوس، فجعلتها تستسلم للذل والخضوع والخنوع، بحجة أننا في اخر الزمان، وأنه لا فائدة ولا رجاء من كل جهود الإصلاح التي تبذل؛ لأن الإسلام في إدبار والكفر في إقبال، وها قد ظهرت علامات الساعة الصغرى، ونحن في انتظار العلامات الكبرى التي سيعقبها قيام الساعة، وقد يستدل أصحاب هذا الاتجاه ببعض الأحاديث، ويفهمونها على غير الوجه المراد منها ، من ذلك استدلالهم بحديث أنس رضي الله عنه عند البخاري: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه، حتى تلقوا ربكم»، وحديث: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود قريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء» . وينسون أنه لا يجوز أن نفهم هذه الأحاديث بمعزل عن الأحاديث الأخرى التي تحمل البشرى والأمل للأمة، مثل حديث: «مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أو اخره» ، وفي قوم دون غيرهم، وفي زمن دون زمن، كما ذكر ابن القيم ،ولذلك شهد التاريخ الإسلامي حقباً من الظهور والإشراق كعهد عمر بن عبد العزيز، ونور الدين، وصلاح الدين، ويوسف بن تاشفين، ومحمد الفاتح، وغيرهم.

وتجب الإشارة هنا إلى أن حديث التجديد الذي نحن بصدد شرحه، وكذا الأحاديث التي تحمل البشرى بعودة الإسلام إلى واجهة الحياة، وإن كانت أخباراً يقينية صدرت عن الصادق المعصوم، ولا بد أن تتحقق كما أخبر، إلا أنها تحمل في مضمونها تكليفاً واستنهاضاً لعزمات المسلمين بوجوب السعي الدؤوب لتحقيق نصر الله لهذا الدين وإعزاز أهله كما هي سنة الله في ترتيب المسببات على الأسباب.

أ ـ في قوله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة»:

إن هذا المبعوث لم يعد همه نفسه فقط، بل تجاوز ذلك ليعيش لهذه الأمة، فهو صاحب عزيمة وهمة، يعيش هموم أمته ويبذل قصارى جهده مواصلاً عمل النهار بالليل، لينقذ هذه الأمة من وهدتها، ويعيد لها ثقتها بدينها، ويردها إلى المنهج الصحيح، مصابراً على ما يعترض سبيله من عقبات، ومغالباً كل المشقات والتحديات، ليصل إلى رفعة هذه الأمة وعودة مجدها .

ب ـ قوله: «على رأس كل مئة سنة» :

الرأس في اللغة يمكن أن يراد به أول الشيء، كما يمكن أن يراد به اخره ، وقد اختلف العلماء في المراد من الرأس في هذا الحديث، فقال بعضهم: المراد: أول المئة وقال اخرون: المراد اخرها ، وهذا ما اختاره ابن حجر ، والطيبي ، والعظيم ابادي ، وقد احتج العظيم ابادي لاختياره بكون الإمامين الزهري وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة المتقدمين والمتأخرين، اتفقوا على أن من المجددين على رأس المئة الأولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وعلى رأس المئة الثانية الإمام الشافعي رحمه الله، وقد توفي عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومئة، وله أربعون سنة، ومدة خلافته سنتان ونصف، وتوفي الشافعي سنة أربع ومئتين، ولا يمكن عد عمر بن عبد العزيز مجدد المئة الأولى باعتباره أولها؛ لأنه لم يكن مولوداً أولها فضلاً عن أن يكون مجددها، وكذا الإمام الشافعي لم تكن ولادته بداية المئة الثانية فضلاً عن أن يكون مجددها

جـ هل يشترط لعد المجدد أن تقع وفاته على رأس المئة؟:

يشترط بعض العلماء لاستحقاق المجدد هذا الوصف أن تقع وفاته على رأس القرن، إلا أن هذا الرأي مرجوح؛ لأن كلمة (البعث) في الحديث تدلُّ على الإرسال والإظهار، والموت قبض وزوال، فالمقصود من الحديث: أن المجدد من تأتي عليه نهاية القرن وقد ظهرت أعماله التجديدية، واشتهر بالصلاح وعمّ نفعه، ولا يشترط أن تقع وفاته قبيل نهاية القرن، أو أن يبقى حياً حتى يدخل عليه القرن التالي .

د ـ هل مجدد القرن واحد أو متعدد؟:

أثار قوله ﷺ: «من يجدد لها دينها» سؤالاً في الماضي والحاضر، هو: هل المقصود بلفظة (من) الواردة في الحديث فرداً واحداً من أفراد الأمة وأفذاذها يحيي الله بها دينها، أم المراد بها ما هو أوسع من ذلك فيشمل الأفراد والجماعات، وذهب كثير من العلماء إلى أن المجدد فرد واحد، ونسب السيوطي هذا الرأي إلى الجمهور، فقال في أرجوزته عن المجددين:

وكونُه فرداً هُوَ المشهورُ

قد نطقَ الحديثُ والجمهورُ

وذهب فريق اخر من العلماء إلى أن كلمة (من) في الحديث للعموم في أصل وضعها اللغوي ، فتشمل الواحد والجماعة على حد سواء، ومن هؤلاء العلماء ابن حجر وابن الأثير والذهبي وابن كثير والمناوي والعظيم ابادي، ويتبين من خلال البحث أن حمل لفظة (من) في الحديث عن العموم أولى، لأن التاريخ والواقع يثبت وجود أكثر من مجدد رأس كل قرن من القرون الخوالي، ولأن مهمة التجديد مهمة ضخمة واسعة؛ لكونها لا تقتصر على جانب من جوانب الدين، ولأن رقعة الأمة الإسلامية تمتد على مساحة شاسعة يصعب معها على فرد بل مجموعة أفراد أن يقوموا بعملية التجديد الشامل المطلق .

هـ المجدد هو دين الأمة وليس الدين نفسه:

يلاحظ المتأمل في قوله ﷺ: «من يجدد لها دينها» أنه أضاف الدين إلى الأمة، ولم يقل يجدد لها الدين، وذلك لأن الدين بمعنى المنهج الإلهي الذي بعث الله به رسوله ﷺ، وما اشتمل عليه من عقائد وعبادات وأخلاق وشرائع تنظم علاقة العبد بربه وعلاقته بغيره من بني جنسه، ثابت كما أنزله الله لا يقبل التغيير ولا التجديد، وأما دين الأمة بمعنى علاقة الأمة بالدين ومدى تمسكها وتخلقها به وترجمتها له واقعاً ملموساً على الأرض، فهو المعنى القابل للتجديد ليعيد الناس إلى المستوى الذي ينبغي أن يكونوا عليه بعلاقتهم مع الدين

يمكنكم تحميل كتاب الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.